ثقـــافة المتنبي

بقلم على النجدى ناصف

مفتش المعارف بلوى

لما ترعرع المتنبي ، واشتد عوده ، دفعه أبوه إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة ؛ فتعلم فيه دروس العربية شعرا ولغة وإعرابا (١) . وليس فى الكتب التى بين أيدينا ما يشير إلى أنه حفظ القرآن الكريم ، بل إن فى بعضها ما يساعد على ترجيح أنه لم يكن يحفظه ، ولا ينشط لقراءته . حدث على بن حمزة البصرى أنه ابتلى من المتنبي خصالا بعضها ذميم ، والآخر حميد ؛ فمن خصاله الذميمة أنه لم يكن يصلى ، ولا يقرأ القرآن (٢) .

نعم ، فى غير موضع من شعره إشارات إلى بعض قصص القرآن : مثل قوله :

لَوْ كَانَ ذُو القَرْنَيْنِ أَعْمَلَ رَأْيَهُ ... لَمَّا أَتَى الظُّلُمَاتِ ـ صِرْنَ شُمُوسَا

أَوْ كَانَ صَادَفَ رَأْسَ عَازَرَ سَيْفُهُ ... فِى يَوْمِ مَعْرَكَةٍ ـ لَأَعْيَا عِيسَى

أَوْ كَانَ لُجُّ البَحْرِ مِثْلَ يَمِينِهِ ... مَا انْشَقَّ حَتَّى جَازَ فِيهِ مُوسَى

وقوله :

لِمَنْ مَالٌ تُمَزِّقُهُ العَطَايَا ... وَيُشْرَكُ فِى رَغَائِبِهِ الأَنَامُ؟

وَلَا نَدْعُوكَ صَاحِبَهُ فَتَرْضَى ... لِأَنَّ بِصُحْبَةٍ يَجِبُ الذِّمَامُ

تُحَايِدُهُ كَأَنَّكَ سَامِرِىٌّ ... تُصَافِحُهُ يَدٌ فِيهَا جُذَامُ

(١) خزانة الادب : ٢ : ٣٠٣ (٢) الصبح المنبى : ١ : ٧٧ بتصرف .

وقوله :

كَأَنَّ كُلَّ سُؤَالٍ فِى مَسَامِعِهِ قَمِيصُ يُوسُفَ فِى أَجْفَانِ يَعْقُوبِ

ولكن ذلك لا ينهض وحده دليلا على حفظه القرآن ، فقد يكون كل ما قاله فى هذا الباب مجرد أثر من آثار ثقافته ودراسته ، بل من آثار بيئته الخاصة (١) ونشأته الإسلامية ليس غير .

وبعد أن استوفى حظه من الكتاب ، خرج إلى البادية ، فلبث سنين فى أهلها يعيش بينهم ، ويأخذ عنهم اللغة والبيان(٢). ولعله كان يعنى منازله بالبادية كلها أو بعضها فى قوله :

دَرَّ دَرُّ الصِّبَا ! أَأَيَّامَ تَجْرِيـ ـرِ ذُيُولِى بِدَارِ (أَثْلَةَ) ، عُودِى

وقوله :

تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنَ (الْعُذَيْبِ وَبَارِقٍ) مَجَرَّ عَوَالِينَا ، وَمَجْرَى السَّوَابِقِ
وَصُحْبَةَ قَوْمٍ يَذْبَحُونَ قَنِيصَهُمْ بِفَضْلَةِ مَا قَدْ كَسَّرُوا فِى الْمَفَارِقِ
وَلَيْلاً تَوَسَّدْنَا (الثَّوِيَّةَ) تَحْتَهُ كَأَنَّ ثَرَاهَا عَنْبَرٌ فِى الْمَرَافِقِ

فإذا صح ذلك يكون الشاعر لم يمعن فى البادية ؛ لأن هذه الأماكن غير بعيدة من الكوفة ، فدار أثلة ، والعذيب ، وبارق مواضع بظاهر الكوفة . وبين الثوية والكوفة ثلاثة أميال(٣) .

وكان وهو فى الكوفة يغشى مجالس العلماء والأدباء ، ويختلف إلى الوراقين ، يروى نفسه الظامئة ، ويستوفى حظه من الثقافة والتهذيب . ولسنا نعرف من أساتيذه فيها إلا أستاذين اثنين : حدث البغدادى عن أحدهما ، قال : كان المتنبى

(١) كانت جدته تقية صالحة ، ويظهر أنها كانت تقرأ ، كما يفهم من قوله :
تعجب من لفظى وخطى كأنما ٭ ترى بحروف السطر أغربة عصما
(٢) الصبح المنبى : ١ : ٦ (٣) شرح العكبرى : ١ : ١٩٤ ، ١ : ٤٣٦

فى صغره وقع إلى واحد يكنى أبا الفضل بالكوفة ، من المتفلسفة ، فهوسه وأضله كما ضل[١] وقد بحثت طويلا عن أبى الفضل المذكور ، مستنيرا بما ذكر البغدادى من سماته ، فلم أعثر له على عين ولا أثر .

وأما الآخر فأبو الحسن ، المعروف بالناشئ الأصغر ، أحد الشعراء المصنفين . وقد حدث عن نفسه ، قال : كنت بالكوفة سنة ٣٢٥ ، وأنا أملى شعرى فى المسجد الجامع بها ، والناس يكتبون عنى . وكان المتنبى إذ ذاك يحضر معهم ، وهو بعد لم يعرف ، ولم يلقب بالمتنبى ، فأمليت القصيدة التى أولها :

بِآلِ مُحَمَّدٍ عُرِفَ الصَّوَابُ وَفِى أَبْيَاتِهِمْ نَزَلَ الْكِتَابُ

وقلت فيها :

كَأَنَّ سِنَانَ ذَابِلِهِ ضَمِيرٌ فَلَيْسَ عَنِ الْقُلُوبِ لَهُ ذَهَابُ

وَصَارِمَهُ كَبَيْعَتِهِ بِخُمٍّ مَقَاصِدُهَا مِنَ الْخَلْقِ الرِّقَابُ[٢]

فلحته يكتب هذين البيتين ، ومنهما أخذ ما أنشدته فى الآن من قوله :

كَأَنَّ الْهَامَ فِى الْهَيْجَا عُيُونٌ وَقَدْ طُبِعَتْ سُيُوفُكَ مِنْ رُقَادِ

وَقَدْ صُغْتَ الْأَسِنَّةَ مِنْ هُمُومٍ فَمَا يَخْطِرْنَ إِلَّا فِى فُؤَادِ[٣]

وروى أبو الحسن العلوى أن وراقا كان يجالس إليه المتنبى ، قال : ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عبدان ، فقلت له : وكيف ؟ فقال : كان اليوم عندى ، وقد أحضر رجل كتابا من كتب الأصمعى (سماه الوراق ، ونسيه أبو الحسن) يكون نحو ثلاثين ورقة ؛ ليبيعه ، قال : فأخذ ينظر فيه طويلا ، فقال له الرجل : يا هذا ، أريد بيعه ، وقد قطعتنى عن ذلك ، فإن كنت تريد حفظه من هذه المدة فبعيد . فقال له : إن كنت حفظته فما لى عليك ؟ قال : أهب لك الكتاب . قال : فأخذت الدفتر من يده ، فأقبل يتلوه على إلى آخره ، ثم استلبه فجعله فى كمه ، وقام ،

(١) خزانة الادب : ٢ : ٣٠٦ (٢) خم : مكان

(٣) معجم الادباء : ٥ : ٢٣٩ ، و ٢٤٠ .

فعلق به صاحبه ، وطالبه بالثمن ، فقال : ما إلى ذلك سبيل ؛ قد وهبته لى . قال : فمنعناه منه ، وقلنا له : أنت شرطت على نفسك هذا للغلام . فتركه عليه (١) .

وتعد هذه النادرة من أعدل نوادر الأذكياء ، وأدخلها فى باب المعقول ، إذا قيست بنظائرها ، مما يروى عن أمثال عبد الله بن عباس ، وبديع الزمان الهمذانى ، وأبى العلاء المعرى ، وغيرهم من الأذكياء المشهورين . وهى على أى حال دليل على أن الغلام كان ألمعيا لقنا ، فإن الناس أحرى ألا يعزوا وقائعها إليه إلا إذا آنسوا منه سرعة الحفظ ، وصحة القريحة

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا حتى يروا عنده آثار إحسان

وفى بلاد الشام خرج المتنبى إلى البادية أيضا ، فشافه الأعراب ، وبلغ غايته من اللغة والبيان . وكانت اللغة يومئذ لا تزال صحيحة فى البادية ، وكان علماء اللغة يغتنمون قدوم الفصحاء من أهلها ليحاوروهم فى أساليبها ، ويستأنسوا بسليقتهم فى تقرير قواعدها ، واستبانة الصواب فيما استبهم من مسائلها (٢) .

وكان المتنبى محبا للقراءة ، مشغوفا بالكتب : يجمعها ، ويحافظ عليها . حدث وكيل داره بحلب ، قال : كان المتنبى يقبل على دفاتره كل ليلة للدرس والقراءة . وقد لا يأوى إلى فراشه إلا بعد منتصف الليل (٣) . وليس ذلك بكثير ولا مستغرب من الذى يقول :

أَعَزُّ مَكَانٍ فِى الدُّنَا سَرْجُ سَابِحٍ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِى الزَّمَانِ كِتَابُ

وقال أبو نصر الجيلى فى قصة مقتله : « . . . وافانى المتنبى ، ومعه بغال موقرة بكل شىء من الذهب والفضة والطيب والتجملات النفيسة ، والكتب الثمينة والآلات . . وكان أكثر إشفاقه على دفاتره . لأنه كان قد انتخبها ، وأحكمها قراءة وتصحيحا (٤) . . »

---

(١) تاريخ بغداد : ٤ : ١٠٣ (٢) وفيات الأعيان : ١ : ٦٣٥ ، ومعجم الأدباء : ٥ : ٢٨ (٣) الصبح المنبى : ١ : ٧٩ ، ٨٠ بتصرف . (٤) الصبح المنبى : ١ : ٢٣٥

وصدق أبو نصر ، فقد رأينا ابنه محسدا يفلت وحده من مقتلة أبيه ، ثم لا يكاد يذكر كتبه . ويتمثل له مبلغ حرصه عليها . حتى ينقلب راجعا فى غير روية ولا وعى ، لعله يستنقذها ، فيقتل دونها مع المقتولين .

وقال صاحب إيضاح المشكل : « وكان المتنبى يحفظ ديوانى الطائيين ، ويستصحبهما فى أسفاره . . فلما قتل توزعت دفاتره فوقع ديوان البحترى إلى بعض من درس على » ، وذكر أنه رأى خط المتنبي وتصحيحه فيه (١) .

وقال ابن خلكان فى ترجمة ابن الرومى « . . وكان شعره غير مرتب ، ورواه عنه المتنبي ، ثم عمله أبو بكر الصولى ، ورتبه على الحروف ، وجمعه أبو الطيب(٢) .»

وهؤلاء الشعراء الثلاثة ـ كما لا يخفى ـ من أبعد شعراء العربية صيتا ، وأزكاهم قريحة ، وأكرمهم نتاجا ، وأبرعهم فنا . وما منهم إلا صاحب شأو بعيد ، هو فيه الفارس المجلى ، ومبتدع طريقة فى صناعة الشعر ، يتفرد وحده بالإحسان فيها إلى الغاية القصوى فجملة شعرهم تعد بحق خلاصة الشعر العربى كله ، وأحفل معارضه بآثار البراعة والنبوغ : وبحسبك أن يسهم فيه حبيب بفنه الرائع ، وفكره الدقيق ، وحكمه العالية ؛ والوليد بخياله السرى ، وتصويره الأنيق ، ولفظه الرشيق ؛ وابن الرومى بمعانيه المخترعة ، وتوليده العجيب ، واستقصائه البالغ . ولم تكن هذه الجملة على ضخامة قدرها وجلالة خطرها ـ كل ما يحفظ المتنبي من الشعر ، لأن الرجل ـ كما علمت ـ كان سريع الحفظ . مشغوفا بالقراءة والتحصيل وسترى فيما نسوقه اليك من أنباء تعلمه ومناظراته أنه كان يحفظ لأبى نواس ، وكثير ، والعدوانى ، ونذكر هنا أنه كان يكبر شعراء الجاهلية ، ويرى فى أشعارهم المثل الأعلى للشعر قال :

لاَ تَحْسِبُ الْفُصَحَاءُ تُنْشِدُ هَا هُنَا ... بَيْتًا ، وَلَكِنَّى الْهِزَبْرُ الْبَاسِلُ

مَا نَالَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ كُلُّهُمْ ... شِعْرِى، وَلاَ سَمِعَتْ بِسِحْرِى بَابِلُ

(١) خزانة الأدب : ٢ : ٣٠٦ (٢) وفيات الأعيان : ١ : ٢٤٢

وقال يشيد بفضل النابغة :

سَمِعْتُكَ مُنْشِداً يَبْتَيْ زِيَادٍ نَشِيداً مِثْلَ مُنْشِدِهِ كَرِيعَا
فَمَا أَنْكَرْتُ مَوْضِعَهُ وَلَكِنْ غَبَطْتُ بِذَاكَ أَعْظُمَهُ الرَّمِيما

فلا جرم أنه كان يحفظ لشعراء الجاهلية أيضا ؛ وأنه كما حفظ للعدوانى لم يفته أن يحفظ لامرىء القيس والنابغة وزهير ومن اليهم من شعراء الجاهلية المقدمين . على أننا نلمح فى أنحاء من شعره شواهد غير قليلة تنبث هنا وهناك ، وتشير إلى أنه كان يحفظ لجمع كبير من الشعراء فى كل عصر من العصور .

ثم إنه كان فى كل بلد رحل إليه يلتقى بالعلماء للدرس والمناظرة ، ويقصده الطلاب للرواية والأخذ . فنى حلب لقى طائفة جليلة من أعيان العلماء والأدباء ؛ كابن خالويه ، والفارسى ، وابن جنى ، وأبى فراس ، والرفاء ، والنامى ، وغيرهم . ووقعت له مع كثير منهم مجالس ومجاولات فى مسائل شتى فى العلم والأدب .

روى الطرائفى أن ابن جنى كان يحضر الكثير عند المتنبى فى حلب ، ويناظره فى شىء من النحو (١)

وحدث العكبرى أن المتنبى حضر يوما مجلس سيف الدولة ، وبين يديه ترنج وطلع ، وهو يمتحن الفرسان ، فقال لابن شيخ المِصِّيصة (٢) : لا تتوهم هذا للشرب ، فارتجل المتنبى ثلاثة أبيات ، مطلعها :

شَدِيدُ الْبُعْدِ مِنْ شُرْبِ الشَّمُولِ تُرُنْجُ الْهِنْدِ ، أَوْ طَلْعُ النَّخِيلِ

فأنكر عليه ابن خالويه ترنج ، وقال : المعروف أترج ، فاستشهد أبو الطيب برواية أبى زيد أنهما مقولان (٣) .

وقال صاحب وفيات الأعيان فى ترجمة الفارسى : وأقام بحلب عند سيف الدولة بن حمدان مدة ، وكان قدومه عليه فى سنة ٣٤١ ، وجرت بينه وبين أبى

(١) معجم الأدباء : ٥ : ٢٥ (٢) مدينة على ساحل البحر الرومى ، تجاه طرسوس (وفيات الأعيان : ١ : ٤٧) (٣) التبيان : ٢ : ٧٥ .

الطيب المتنبي بمجالس (١) . وقال فى ترجمة النامى : « . . . وله مع المتنبي وقائع ومعارضات فى الإنشاء . . (٢) » .

وحدث صاحب الصبح المنبي ، قال : حضر المتنبي مجلس أبى أحمد بن نصر البازيار ، وزير سيف الدولة ، وهناك أبو عبد الله بن خالويه النحوى ، فتماريا فى أشجع السلمى ، وأبى نواس البصرى ، فقال ابن خالويه : أشجع أشعر ، إذ قال فى هرون الرشيد ، رحمه الله تعالى :

وعلى عدوك يابن عم محمد رصدان : ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبه رعته ، وإذا غفا سلت عليه سيوفك الأحلام

فقال المتنبي : لأبى نواس ما هو أحسن فى بنى برمك ، وهو :

لم يظلم الدهر إذ توالت فيهم مصيباته دراكا
كانوا يُجيرون من يعادى منه ، فعاداهُ لذاكا (٣)

وفى مصر كان المتنبي يختلف إلى جامع عمرو ، فيتسابق الناس إلى لقائه ؛ لمساجلته ، أو الأخذ عنه ، سواء فى ذلك الوطنى المقيم ، والأجنبي العابر .

حدث ياقوت فى معجمه ، قال : أخبر بعض العلية أن الخطيب أبا الوليد بن عسال حج ، فلما انصرف تطلع إلى لقاء المتنبي ، واستشرف ، ورأى أن لقيته فائدة يكتسبها ، وحلة فخر لايحتسبها ، فصار إليه ، فوجده فى مسجد عمرو بن العاص ، ففاوضه قليلا ، ثم قال : ألا أنشدنى لمليح الأندلس ، يعنى ابن عبد ربه ، فأنشده :

ياالؤلؤا يسبى العقول أنيقا ورشاً بتقطيع القلوب رفيقا
ما إن رأيت ، ولا سمعت بمثله درا يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرتَ إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك فى سناه غريقا
يامن تقطع خصره من ردفه مابال قلبك لا يكون رقيقا ؟

---

(١) وفيات الأعيان : ١ : ١٦٣ (٢) وفيات الأعيان : ١ : ٤٦
(٣) الصبح المنبي : ١ : ٦٣ ، و ٦٤

فلما أكمل إنشاده ، استعاده منه ، ثم صفق بيديه ، وقال : يا بن عبد ربه ، لقد يأتيك العراق حبوا (١) . وقال أبو الحسن المهلبى النحوى : وقع بينى وبين المتنبى كلام فى قول العدوانى :

يا عمرو ، إلا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقونى

وذلك أن المتنبى قال : إن الناس يغلطون فى هذا البيت ، والصواب اشقونى ، من شقأت رأسه بالمشقأة ، وهو المشط . قال المهلبى : فقلت له : أخطأت من وجوه : أحدها أنه لم يرو كذلك ، والآخر أنه يقال : شقأت بالهمزة ، وأيضا فإنى أظنك لا تعرف الخبر فيه ، وما كانت العرب تقوله فى الهامة : إنها إذا لم يثأر بصاحبها لاتزال تقول : اسقونى ، فإذا ثأروا به سكن كأنه شرب الدم (٢)

ونحن نستبعد أن يقع المتنبى فى هذا الخطأ البين ؛ لأن خبر الهامة عند عرب الجاهلية شائع مشهور ، والرجل لاشك كان واسع الرواية ، خبيرا بمواقع الكلام .

ولما ورد بغداد كان الطلاب يؤمونه حيث يقيم ، فيروون شعره ، ويقرءونه عليه (٣) . وفيها وقعت المذاكرة المشهورة بينه وبين الحاتمى (٤) . ووقعت كذلك مناظرة بينه وبين أبى الفرج الأصفهانى ، بمجلس المهلبى ، فى قول كثير :

---

(١) معجم الأدباء : ٢ : ٧١ (٢) مات المهلبى بمصر سنة ٣٨٥ . معجم الادباء : ٥ : ٨١ ، ٨٢ (٣) تاريخ بغداد : ٤ : ١٠٢ (٤) خلاصتها أن المتنبى حين قدم بغداد ، كان يتعاظم على أدبائها ، ولا يجرؤ أحد منهم على مقارعته ، أو التغير عليه . فاستاء معز الدولة ووزيره المهلبى ، ورأى الحاتمى أن لا مناص له من مساجلته ، والمغامرة فيما اهتابه غيره ، ذيادا عن كرامته ، وكرامة إخوانه ، والتماسا لرضا الامير ووزيره ، فقصد إلى المتنبى ، فلم يحسن المتنبى لقاءه ، فاغتاظ الحاتمى ، وأخذه باللوم أخذا عنيفا ، ثم أقبل على شعره ينقده ، ويكشف عن معايبه . فعرض المتنبى أمثلة من شعره المستجاد وافتخر بها ، فاتهمه الحاتمى بسرقتها ودل على المآخذ التى نقل عنها ، ثم انتقلا إلى محاورة قصيرة فى اللغة ، لم يلبثا بعدها أن تصالحا . هذا مجملها كما يقول الحاتمى ، وتراها مبسوطة فى : معجم الادباء : ٦ : ٥٠٤ - ٥١٨ ، والصبح المنبى : ١ : ١٤٤ - ١٧٣ وفيات الاعيان : ١ : ٦٤٦

سقى الله أمواهاً عرفت مكانها جُراماً، ومَلْكُوماً، وبَذَّرَ، فالغَمْرَا

أنشدوه جراما بالميم، فقال المتنبي: هو جرابا. وهذه أمكنة قتلها علما، وإنما الخطأ وقع من النقلة، فأنكره أبو الفرج. ورواية سيبويه، ومحمد بن كيسان النحوى (جرابا) بالباء، كما يقول المتنبي (١).

وفى أرجان، قرأ عليه ابن العميد ديوان اللغة الذى جمعه، وكان يتعجب من حفظه، وغزارة علمه (٢)

وفى شيراز كان الأدباء يغشون مجلسه للدرس والمناظرة، وقراءة شعره عليه، أو نقله عنه (٣). حدث الربعى، قال: كنت يوما عند المتنبي بشيراز، فقيل له: أبو على الفارسى بالباب، وكانت تأكدت بينهما المودة. قال: بادروا إليه، فأنزلوه. فدخل أبو على، وأنا جالس عنده. فقال: يا أبا الحسن. خذ هذا الجزء، وأعطانى جزءا من كتاب التذكرة، وقال: اكتب عن الشيخ البيتين اللذين ذكرتك بهما، وهما:

سَأَطْلُبُ حقِّى بِالْقَنَا وَمَشَايِخٍ كَأَنَّهُمُ مِنْ طُولِ مَا الْتَثَمُوا مُرْدُ

ثِقَالٍ إِذَا لاَقَوْا، خِفَافٍ إِذَ دُعُوا، كَثِيرٍ إِذَا شَدُّوا، قَلِيلٍ إِذَا عُدُّوا (٤)

هذا وصف ثقافة المتنبي، كما رأيناها بمطارحها من بطون الكتب. ولا يسعنا إلا الإقرار بأنه وصف قاصر، لا يسلم من النقص فى بعض نواحيه. فليس فيه مثلا إحصاء للعلوم والفنون التى درسها. أو ألم بأطراف منها، ولو أنه من المفهوم أن رجلا كالمتنبي جد حقيق ألا يفوته شيء من أنواع العلوم والفنون التى ازدهرت فى عصره، يأخذ منها بحظوظ قد تتفاوت بتفاوت الحاجة والملابسات.

فلنرجع إذا إلى شعره، نلتمس فيه سداد هذه الحاجة؛ إنه بها كفيل. فإذا نحن أخذنا فيه من الناحية اللغوية رأينا أكثره فخم الألفاظ، متين التراكيب، محكم الأساليب، ومن ذلك قوله:

(١) خزانة الادب: ٢: ٣١٠، ومعجم الادباء: ٦: ٤١٨

(٢) خزانة الادب: ٢: ٣١١ (٣) الصبح المنبي: ١: ٩٠ (٤) الصبح المنبي: ١: ٢١٢، ٢١٣

أُطَاعِنُ خَيْلاً مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ
وَحِيداً. وَمَا قَوْلِي كَذَا وَمَعِي الصَّبْرُ ؟

وَأَشْجَعُ مِنِّي كُلَّ يَوْمٍ سَلَامَتِي
وَمَا ثَبَتَتْ إِلاَّ وَفِي نَفْسِهَا أَمْرُ

تَمَرَّسْتُ بِالآفَاتِ حَتَّى تَرَكْتُهَا
تَقُولُ: أَمَاتَ الْمَوْتُ، أَمْ ذُعِرَ الذُّعْرُ ؟

وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الْأَبِيِّ كَأَنَّ لِي
سِوَى مُهْجَتِي، أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وِتْرُ

دَعِ النَّفْسَ تَأْخُذْ وُسْعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا
فَمُفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعُمْرُ

وَلاَ تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زِقًّا وَقَيْنَةً
فَمَا الْمَجْدُ إِلاَّ السَّيْفُ، وَالْفَتْكَةُ الْبِكْرُ

وَتَضْرِيبُ أَعْنَاقِ الْمُلُوكِ، وَأَنْ تُرَى
لَكَ الْهِبَوَاتُ السُّودُ وَالْعَسْكَرُ الْمَجْرُ

وَتَرْكُكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّمَا
تَدَاوَلُ سَمْعَ الْمَرْءِ أَنْمُلُهُ الْعَشْرُ

ونصادف فى كثير من قصائده ، ولا سيما الأراجيز ـ غرابة فاشية ، تتحول بعض الأحيان إلى معاظلة جافية ، وترخص فى اصطناع الحوشى النافر ، ولو لم

يكن ثمة حاجة داعية ، ولا ضرورة ملجئة . قال يصف فرسا تأخر الكلأ عنه بوقوع الثلج :

كَأَنَّمَا الطُّخْرُورُ بَاغِي آبِقِ ... يَأْكُلُ مِنْ نَبْتٍ قَصِيرٍ لَاصِقِ (١)

كَقَشْرِكَ الْجِبْرَ مِنَ الْمَهَارِقِ ... أَرُودُهُ مِنْهُ بِكَالسُّوذَانِقِ (٢)

بِمُطْلَقِ الْيُمْنَى ، طَوِيلِ الْفَائِقِ ... عَبْلِ الشَّوَى ، مُقَارِبِ الْمَرَافِقِ (٣)

رَحْبِ اللَّبَانِ ، نَائِهِ الطَّرَائِقِ ... ذِي مَنْخِرٍ رَحْبٍ ، وَإِطْلٍ لَاحِقِ (٤)

مُحَجَّلٍ ، نَهْدٍ ، كُمَيْتٍ ، زَاهِقِ ... شَادِخَةٍ غُرَّتُهُ ، كَالشَّارِقِ (٥)

كَأَنَّهَا مِنْ لَوْنِهِ فِي بَارِقِ ... بَاقٍ عَلَى الْبَوْغَاءِ ، وَالشَّقَائِقِ (٦)

وَالْأَبْرَدَيْنِ ، وَالْهَجِيرِ الْمَاحِقِ ... لِلْفَارِسِ الرَّاكِضِ ، مِنْهُ الْوَاثِقِ (٧)

خَوْفُ الْجَبَانِ فِي فُؤَادِ الْعَاشِقِ

كَأَنَّهُ فِي رَيْدِ طَوْدٍ شَاهِقِ ... يَشْأَى إِلَى الْمَسْمَعِ صَوْتَ النَّاطِقِ (٨)

وقال فى المدح :

جَفَخَتْ - وَهُمْ لَا يَجْفَخُونَ بِهَا - بِهِمْ

شِيَمٌ عَلَى الْحَسَبِ الْأَغَرِّ دَلَائِلُ (٩)

(١) الطخرور : اسم الفرس (٢) المهارق : جمع مهرق : الصحيفة ، معرب .

(٣) مطلق اليمنى : يريد أن لونها يخالف قوائمه الثلاث . الفائق : مفصل رأس العنق

(٤) نائه الطرائق : عالى الاخلاق شريفها . إطل لاحق : خصر ضامر .

(٥) زاهق : متوسط بين السمين والمهزول ، الغرة الشادخة : التى ملأت الوجه ولم تشتمل على العينين . (٦) البوغاء : التراب . الشقائق : جمع شقيقة : الارض فيها رمل وحصى . (٧) الأبردان : الغداة والعشى . وخوف مبتدأ خبره للفارس

(٨) الريد : حرف الجبل . يشأى : يسبق (٩) جفخت : تكبرت وفخرت . وبهم متعلق بجفخت ، وشيم فاعله .

وقال فى الغزل :

أَرَ كَائِبَ الْأَحْبَابِ ، إِنَّ الْأَدْمُعَا
تَطِسُ الْخُدُودَ ، كَمَا تَطِسْنَ الْيَرْمَعَا[1]

وقال فيه أيضا :

لَوْ عَدَا عَنْكِ غَيْرَ هَجْرِكِ بُعْدٌ لَأَزَارَ الرَّسِيمُ مُخَّ الْمَنَاقِي[2]

وقال فى الرثاء :

وَلِّى وَكُلُّ مُخَالِمٍ وَمُنَادِمٍ بَعْدَ اللُّزُومِ ـ مُشَيِّعٌ وَمُوَدِّعُ[3]

ونحن فيما أسلفنا من الشواهد لم نؤثر باختيارها قصيدة على أخرى ، ولم نرد بإيرادها توضيح غامض ، أو إثبات مشكوك فيه ، فحيثما تقرأ فى ديوانه تلق الدلائل متظاهرة ، تشهد بسعة روايته . وغزارة محفوظه ، إلى الغاية التى لا يدركها إلا قليل . وإنما أردنا مجرد المشاكلة ، ورعاية المساواة بين النظائر فى إزجاء شواهدها جهد ما نستطيع .

وإذا أخذت فى شعره من ناحية الدلالة على مبلغ صاحبه من العلوم اللسانية والفقهية ـ تبينت ولعا بصياغة المشتقات ، وبصرا بأوزانها ومواضع استعمالها ، لا يخطىء جادة الصواب ، كقوله فى المدح :

أَعَزُّ مُغَالِبٍ كَفًّا وَسَيْفًا وَمَقْدُرَةً ، وَمَحْمِيَةً ، وَآلَا .
وَأَشْرَفُ فَاخِرٍ نَفْسًا ، وَقَوْمًا وَأَكْرَمُ مُنْتَمٍ عَمًّا ، وَخَالَا
يَكُونُ أَحَقَّ إِثْنَاءٍ عَلَيْهِ عَلَى الدُّنْيَا وَأَهْلِيهَا مُحَالَا
وَيَبْقَى ضِعْفُ مَاقَدْ قِيلَ فِيهِ إِذَا لَمْ يَتْرُكْ أَحَدٌ مَقَالَا

(١) تطس : تدق اليرمع : حجارة بيض صغار ، رخوة . (٢) أراد : أذاب . المناقى : جمع منقية ، وهى السمينة فى عظامها نقى ، وهو الخ . (٣) المخالم المصادق.

فَيَابْنَ الطَّاعِنِينَ بِكُلِّ عَضْبٍ ... مِنَ الْعَرَبِ الْأَسَافِلَ وَالْقِلَالَا
أَرَى الْمُتَشَاعِرِينَ غَرُوا بِذَمِّي ... وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ الْعُضَالَا ؟
وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَا !

ورأيت إحاطة بارعة بقواعد النحو والصرف، ولَبَاقة بينة فى اصطناع القواعد والمصطلحات الفنية، من نحوية كقوله:

تُفِيتُ اللَّيَالِي كُلَّ شَيْءٍ أَخَذْتَهُ ... وَهُنَّ لِمَا يَأْخُذْنَ مِنْكَ غَوَارِمُ
إِذَا كَانَ مَاتَنْوِيهِ فِعْلًا مُضَارِعًا ... مَضَى قَبْلَ أَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ الْجَوَازِمُ

وقوله:

يَتَفَزَّعُ الْجَبَّارُ مِنْ بَغَتَاتِهِ ... فَيَظَلُّ فِي خَلَوَاتِهِ مُتَكَفِّنَا
أَمْضَى إِرَادَتَهُ، فَسَوْفَ لَهُ قَدٌ، ... وَاسْتَقْرَبَ الْأَقْصَى، فَثَمَّ لَهُ هُنَا

وقوله:

وَإِنَّمَا نَحْنُ فِي جَيْلٍ سَوَاسِيَةٍ ... شَرٌّ عَلَى الْحُرِّ مِنْ سُقْمٍ عَلَى بَدَنِ
حَوْلِي بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمُ خَلَقٌ ... تُخْطِي إِذَا جِئْتَ فِي اسْتِفْهَامِهَا بِمَنِ

وصرفية، كقوله:

فَعَاشَا عِيشَةَ الْقَمَرَيْنِ يُحْيَا ... بِضَوْئِهِمَا، وَلَا يَتَحَاسَدَانِ
وَلَا مَلَكَا سِوَى مُلْكِ الْأَعَادِي ... وَلَا وَرِثَا سِوَى مَنْ يَقْتُلَانِ
وَكَانَ ابْنَا عَدُوٍّ كَاثَرَاهُ ... لَهُ يَاءَيْ حُرُوفِ أُنَيْسِيَانِ[1]

(١) أنيسيان: مصغر إنسان. يريد: عد ويكاثرك بابنيه، كأنيسيان: زادته الياء ان حروفا. وصغرته معنى.

وخطية كقوله :

كَمْ وَقْفَةٍ سَجَرَتْكَ شَوْقاً بَعْدَ مَا ... غَرِيَ الرَّقِيبُ بِنَا ، وَلَجَّ العَاذِلُ

دُونَ التَّعَانُقِ نَاحِلَيْنِ كَشَكْلَتَى ... نَصْبٍ ، أَدَقَّهُمَا ، وَضَمَّ الشَّاكِلُ

وقوله :

جَرَى الْخُلْفُ إِلاَّ فِيكَ ، أَنَّكَ وَاحِدٌ ... وَأَنَّكَ لَيْثٌ ، وَالْمُلُوكُ ذِيَابُ

وَأَنَّكَ إِنْ قُوِيسْتَ ، صَحَّفَ قَارِئٌ ... ذِيَاباً ، فَلَمْ يُخْطِئْ ، فَقَالَ : ذُبَابُ .

وفقهية ، كقوله:

بَلِيتُ بِلَى الأَطْلاَلِ ، إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا

وُقُوفَ شَحِيحٍ ، ضَاعَ فِي التُّرْبِ خَاتَمُهْ

كَئِيباً ، تَوَقَّانِي الْعَوَاذِلُ فِي الْهَوَى

كَمَا يَتَوَقَّى رَيِّضَ الْخَيْلِ حَازِمُهْ

فَفِي تَغْرَمِ الْأُولَى مِنَ اللَّحْظِ مُهْجَتِي

بِثَانِيَةٍ ، وَالْمُتْلِفُ الشيءَ غَارِمُهْ

وآنست توفيقا عجيبا فى استخدام التعليلات البلاغية ، والاستعانة بها على بلوغ غاية الإجادة فى الافتنان ، وحسن التأثير ، كقوله :

نَحْنُ أَدْرَى ، وَقَدْ سَأَلْنَا بِنَجْدٍ ... أَطَوِيلٌ طَرِيقُنَا ، أَمْ يَطُولُ ؟

وَكَثِيرٌ مِنَ السُّؤَالِ اشْتِيَاقٌ ... وَكَثِيرٌ مِنْ رَدِّهِ تَعْلِيلُ

وقوله :

وَقَدْ رَأَيْتُ الْمُلُوكَ قَاطِبَةً ... وَسِرْتُ حَتَّى رَأَيْتُ مَوْلاَهَا

وَمَنْ مَنَايَاهُمُ بِرَاحَتِهِ ... يَأْمُرُهَا فِيهِمُ وَيَنْهَاهَا

أَبَا شُجَاعٍ بِفَارِسٍ عَضُدَ الدْ دَوْلَةِ فَنَّا خُسْرُو شَهَنْشَاهَا
أَسَامِيًا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وَإِنَّمَا لَذَّةً ذَكَرْنَاهَا

وأما إذا أخذت فيه من ناحية الاستدلال على مقدار حظه من سائر العلوم، فسترى فلسفة عالية فى مثل قوله، يحلل بعض أخلاق سيف الدولة، ويلتمس الأسباب السياسية والنفسية لتمرد بعض قبائل العرب وخروجهم عليه:

وَفِيكَ - إِذَا جَنَى الْجَانِي - أَنَاةٌ تُظَنُّ كَرَامَةً، وَهِيَ احْتِقَارُ
وَأَخْذٌ لِلْحَوَاضِرِ وَالْبَوَادِي بِضَبْطٍ لَمْ تُعَوِّدْهُ نِزَارُ
تَشَمَّمُهُ شَمِيمَ الْوَحْشِ إِنْسًا وَتُنْكِرُهُ، فَيَعْرُوهَا نِفَارُ
وَمَا انْقَادَتْ لِغَيْرِكَ فِي زَمَانٍ فَتَدْرِيَ: مَا الْمَقَادَةُ وَالصَّغَارُ؟
فَأَفْرَحَتِ الْمَقَاوِدُ ذِفْرَيَيْهَا وَصَمَّرَ خَدَّهَا هَذَا الْعِذَارُ

وقوله فى فلسفة الموت:

إِلْفُ هَذَا الْهَوَاءِ أَوْقَعَ فِي الْأَنْـــفُسِ: أَنَّ الْحِمَامَ مُرُّ الْمَذَاقِ
وَالْأَسَى قَبْلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزٌ وَالْأَسَى لَا يَكُونُ بَعْدَ الْفِرَاقِ

وقوله، وقد ألم بفعل الوهم، وقوة تأثيره فى النفس:

وَثِقْنَا بِأَنْ تُعْطِي، فَلَوْلَمْ تَجُدْ لَنَا لَخِلْنَاكَ قَدْ أَعْطَيْتَ مِنْ قُوَّةِ الْوَهْمِ

وترى علما بقواعد الديانات، وأسرار المذاهب فى مثل قوله عن المجوسية:

يَا أُخْتَ مُعْتَنِقِ الْفَوَارِسِ فِي الْوَغَى
لَأَخُوكِ ثَمَّ أَرَقُّ مِنْكِ وَأَرْحَمُ
يَرْنُو إِلَيْكِ مَعَ الْعَفَافِ وَعِنْدَهُ
أَنَّ الْمَجُوسَ تُصِيبُ فِيمَا تَحْكُمُ

وقوله عن المانوية :

وَكَمْ لِظَلاَمِ اللَّيْلِ عِنْدِى مِنْ يَدٍ تُخْبِرُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ

وقوله يشير إلى الخلاف بين منكرى البعث ، والمؤمنين به فى خلود الروح :

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لاَ اتِّفَاقَ لَهُمْ
إِلاَّ عَلَى شَجَبٍ ، وَالْخُلْفُ فِى الشَّجَبِ
فَقِيلَ تَخْلُصُ نَفْسُ الْمَرْءِ سَالِمَةً
وَقِيلَ تَشْرَكُ جِسْمَ الْمَرْءِ فِى الْعَطَبِ

وقال يذكر الدهريين ، والمعطلة ، والقائلين بقدم العالم :

أَلاَ فَتًى يُورِدُ الْهِنْدِىَ هَامَتَهُ
كَيْمَا تَزُولَ شُكُوكُ النَّاسِ وَالتُّهَمُ
فَإِنَّهُ حُجَّةٌ يُؤْذِى الْقُلُوبَ بِهَا
مَنْ دِينُهُ الدَّهْرُ ، وَالتَّعْطِيلُ ، وَالْقِدَمُ

وقوله يذكر النواصب :

إِذَا عَلَوِىٌّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ فَمَا هُوَ إِلاَّ حُجَّةٌ لِلنَّوَاصِبِ

وترى علما بالتنجيم ، فى مثل قوله ، يذكر بعض الكواكب ، ويشير إلى دلالة كل منها ، فى رأى قدامى المنجمين :

وَإِنَّ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ تَرَانِى فَتَعْدِلَ بِى أَقَلَّ مِنَ الْهَبَاءِ
وَتُنْكِرَ مَوْتَهُمْ ، وَأَنَا سُهَيْلٌ طَلَعْتُ بِمَوْتِ أَوْلاَدِ الزِّنَاءِ

وقوله :

أَنَا صَخْرَةُ الْوَادِى إِذَا مَا زُحِمَتْ وَإِذَا نَطَقْتُ فَإِنَّنِى الْجَوْزَاءُ

وقوله :

زُحَلٌ ـ عَلَى أَنَّ الكَوَاكِبَ قَومُهُ ـ لَوْ كَانَ مِنْكَ لَكَانَ أَكْرَمَ مَعْشَرَا

وقوله :

نَفَى وَقْعَ أَطْرَافِ الرِّمَاحِ بِرُمْحِهِ وَلَمْ يَخْشَ وَقْعَ النَّجْمِ وَالدَّبَرَانِ

وعلما بالجغرافية فى قوله :

كَالْبَحْرِ يَقْذِفُ لِلْقَرِيبِ جَوَاهِراً جُودًا ، وَيَبْعَثُ لِلْبَعِيدِ سَحَائِبَا

وقوله :

تَكَسَّبُ الشَّمْسُ مِنْكَ النُّورَ طَالِعَةً
كَمَا تَكَسَّبَ مِنها نُورَهَا الْقَمَرُ

والتاريخ فى مثل قوله :

أَشْمَتَ الْخُلْفُ بِالشُّرَاةِ عِدَاهَا وَشَفَى رَبَّ فَارِسٍ مِنْ إِيَادِ (١)

وَتَوَلَّى بَنِي الْيَزِيدِيِّ بِالْبَصْـ ـرَةِ حَتَّى تَمَزَّقُوا فِي الْبِلَادِ

وَمُلُوكاً كَأَمْسِ، فِي الْقُرْبِ مِنَّا وَكَطَسْمٍ وَأُخْتِهَا ، فِي الْبِعَادِ

وقوله :

وَمِنْ قَوْلِ سَامٍ ـ لَوْ رَآكَ ـ لِنَسْلِهِ
فَدَى ابْنَ أَخِي نَسْلِي ، وَنَفْسِي ، وَمَالِيَا .

والحساب فى قوله :

وَلَقِيتُ كُلَّ الْفَاضِلِينَ ، كَأَنَّمَا رَدَّ الْإِلَهُ نُفُوسَهُمْ وَالْأَعْصُرَا

(١) الشراة : الخوارج . سموا أنفسهم بذلك : يعنون أنهم اشتروا أنفسهم من الله بالقتال.

نُسِقُوا لَنَا نَسَقَ الْحِسَابِ مُقَدَّمًا وَأَتَى (فَذَلِكَ) إِذْ أَتَيْتَ مُؤَخَّرَا[1]

والمنطق فى مثل قوله ، وقد جاء ببعض ضروب الشكل الأول :

فِدًى لَكَ مَنْ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاكَا فَلَا مَلِكٌ إِذًا ، إِلَّا فَدَاكَا

وَلَوْ قُلْنَا : فِدًى لَكَ مَنْ يُسَاوِى دَعَوْنَا بِالْبَقَاءِ لِمَنْ تَلَاكَا

وقوله كذلك :

إِذَا خَافَ مَلِكٌ مِنْ مَلِيكٍ ، أَجَرْتَهُ وَسَيْفُكَ خَافُوا ، وَالْجِوَارَ تُسَامُ

وقوله ، وقد أخذ إخذ المناطقة ، بما أورد من الأدوات التى يكثر دورانها فى الاستدلال ، وإقامة البراهين :

الْيَوْمَ يَرْفَعُ مَلْكُ الرُّومِ نَاظِرَهُ لِأَنَّ عَفْوَكَ عَنْهُ عِنْدَهُ ظَفَرُ

وقوله :

مِنْ طَاعِنِي ثُغَرِ الرِّجَالِ جَآذِرٌ وَمِنَ الرِّمَاحِ دَمَالِجٌ وَخَلَاخِلُ

وَلِذَا ، اسْمُ أَغْطِيَةِ الْعُيُونِ جُفُونُهَا مِنْ أَنَّهَا عَمَلَ السُّيُوفِ عَوَامِلُ

وقوله :

ذِى الْمَعَالِى ، فَلْيَعْلُوَنْ مَنْ تَعَالَى هٰكَذَا ، هٰكَذَا ، وَإِلَّا فَلَا ، لَا

هذه بعض مظاهر ثقافة المتنبى ، كما تبدو فى شعره ، ومنها نرى الرجل ضخم المادة اللغوية ، مستفيض الرواية والحفظ ، متبحراً فى علوم العربية ، عالما بالفلسفة والتاريخ ، والجغرافية ، والفلك ، وأصول الديانات والمذاهب المختلفة ، إلى ماسوى ذلك من أسباب الثقافة العالية لذلك العهد ، وما ظنك برجل تهيأ له فصاحة البادية وثقافة الحضر ، وهو مع ذلك صحيح القريحة ، مستقيم الفطرة ، موصول القراءة والدرس ؟

(١) يقول : سبقك الفضلاء فى الزمن ، ثم جئت فكنت جماع فضلهم ؛ كالحساب : تنسق أولا تفاصيله ثم تجمع جملة واحدة

على أنه ـ وقد طوف فى البلاد ، وتردد بين البوادي والحواضر ـ أتيحت له رؤية كثير من مشاهد الطبيعة الرائعة ، ونتائج الحضارات المختلفة : رأى الصحراء وما فيها من رمال منبسطة ، وحصباء وحجارة منثرة ، وكثبان وآكام جائية ، ووهاد وأودية هابطة ، ووحوش تسنح . وزواحف تدب ، وسراب يلمع ، وريح تثور ، وحر يتوهج . وبرد يلسع ، وسماء مجلوة الصفحة ، ساطعة الشمس ، متلألئة النجوم ، باهرة ضياء البدر . وأحس ما للصحراء من رهبة وجلال . وتأثر بما يغشاها من سذاجة وعبوس . ويلتمع فى سمائها من وضاءة وإشراق .

رأى الجبال تنعقد الثلوج على رءوسها ، أو تنحدر سيولا على سفوحها ، ورأى الأبنية الضخام ، تقوم على قواعد الهندسة ، وتزين بالزخارف والتهاويل ، وتحتوى ضروبا من التماثيل والتحف ، ورأى الأشجار الباسقة ، والمزارع المنسقة والبساتين الأنيقة ، والمياه الجارية .

ثم هو قد خالط أجناسا وطوائف ، وجالس الرؤساء والقواد والساسة ، وعرف ضروبا من العادات ، وألوانا من أساليب العيش ، إلى نحو ذلك ، مما يساعد على إيقاظ العواطف ، وتربية الذوق . وتثقيف الذهن ، واتساع أفق المعارف .

ودونك الآن طائفة من أقوال المنصفين من العلماء والنقاد فيه :

قال صاحب إيضاح المشكل : وجملة القول فيه أنه من حفاظ اللغة ، ورواة الشعر (١) وقال الخالديان : كان أبو الطيب المتنبي كثير الرواية ، جيد النقد (٢) وقال الفارسى : ما رأيت رجلا فى معناه مثله (٣) . وقال ابن خلكان : « . واشتغل بفنون الأدب ، ومهر فيها . وكان من المكثرين من نقل اللغة ، والمطلعين على غريبها وحوشيها ، ولا يسأل عن شيء إلا استشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر ، حتى قيل : إن الشيخ أبا على الفارسى ، صاحب الايضاح والتكملة . قال له يوما : كم لنا من الجموع على وزن فِعلى ؟ فقال المتنبي فى الحال : حجلى (٤) ،

(١) خزانة الادب : ٢ : ٣١٧ (٢) الصبح المنبى : ١ : ١٧٣ .
(٣) نزهة الالبا . ٣٧٢ (٤) واحده حجلة

وظربى (١) . قال الشيخ أبو على : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال ، على أن أجد لهذين الجمعين ثالثا ، فلم أجد (٢) .

وهذه الأقوال - على صدقها - لا تتناول من ثقافة الشاعر إلا جانب الرواية والحفظ . والمتنبي - كما تعلم - لم يكن راوية حافظا فحسب ، فكأن أولئك النقاد لا يعنيهم من ثقافة الأديب إلا الناحية اللغوية وحدها . أما غيرها فليس جديرا أن يلتفت إليه عند تقدير الأديب ، وتحديد منزلته بين الأدباء . ولأمر ما ، عيب على المتنبي أن يتعاطى الفلسفة فى شعره ، فيحيد به عن المألوف الذى سنه القدماء .

وبعد ، فقد كان المتنبي نثر ، كما كان له شعر . وإنك لتتنسم فى نثره روح العبقرية الذى تجده فى شعره . ويخيل إلىّ أنه لو تفرغ للنثر ، أو نزل له عن قسط من عنايته وإقباله ، لكان بين الكتاب مثله بين الشعراء .

ومن نثره الفنى رسالته البليغة ، التى بعث بها إلى صديق كان يزوره ، وهو مريض بمصر ، فلما أبل انقطع عنه . وهى :

وصلتنى (وصلك الله) معتلا ، وقطعتنى مُبِلاّ ، فان رأيت ألا تحبّب العلة إلىّ ، ولا تكدرَ الصحة علىّ ، فعلت إن شاء الله (٣) .

وهى كما ترى — رسالة تجمع بين وضوح المعنى وسهولة اللفظ ، وتزدان بحظ وافر من جمال الفن ، فى غير تعمل ولا استكراه ، وتفى بالمراد كاملا مع ما فى عبارتها من شدة الإيجاز .

وله كذلك عبارات مرتجلة ، تتسامى فى بلاغتها ، ورشاقة لفظها وإيجازه — إلى مكانة الأمثال السائرة ، والتوقيعات الجامعة . فمن ذلك ، أنه لما دخل على عضد الدولة لأول مرة ، قال : شكرت مطية حملتنى إليك ، وأملا وقف بى عليك (٤) . ولما انصرف عن المجلس أتبعه عضدُ الدولة بعضَ جلسائه ، وقال له : سله ، كيف شاهد مجلسنا ؟ وأين الأمراء الذين لقيهم منا ؟ فكان جواب المتنبي عن جميع ماسمع من ذلك : ما خدمت عيناى قلبى كاليوم (٥) .

على النجدى ناصف

(١) واحده ظربان ، لدويبة كالهرة منتنة الرائحة (٢) وفيات الاعيان : ١ : ٤٤
(٣) المصدر نفسه (٤) خزانة الادب : ٢ : ٣١٤ (٥) الصبح المنبى : ١ : ٢٠٩